المشرق

النهضة الكاثوليكية في حلب

والرسالات الفرنسويَّة في القرن السابع عشر

للاب فرنسوا تورنيز اليسوعي

كان العالم النصراني بعد تقرير الاتحاذ بين الشرقيين واللاتين في فلورنسة سنة ١٤٣٩ استبشر بعصر ذهبي جديد يأتلف فيهِ الشرق والغرب معاً لصون حوزة النصرانية من المخاطر التي كانت تتهدَّدها ولرفع شأن الكنيسة الكاثوليكيَّة. كيف لا وكان آباء الكنائس الشرقيَّة والغربيَّة بعد الجلسات المتناوبة والابحاث المدقَّقة ومراجعة اعمال الآباء والتقاليد القديمة الراقية حتى مهد النصرانية اتَّفقوا على صكّ نهائي قرَّروا فيهِ كل عقائد الكنيسة اللاتينيَّة وامضوهُ بختمهم. وكان البطريرك القسطنطيني يوسف الثاني قبل صدور ذلك الصكّ بستَّة وعشرين يوماً توفي تكنهُ اعلن برقيم كتبهُ بخطّ يدهِ قبل موتهِ ببضع ساعات أنَّهُ « خاضع لكل ما تعلّمهُ كنيسة يسوع المسيح الرسولية التي هي كنيسة رومية القديمة ». وجاهر خلفهُ مطروفانس بقبولهِ لكل تعاليم المجمع موقّعاً على الصكّ كزئيس اساقفة كيزيك ثم بعد رجوعهِ الى القسطنطينيَّة كبطريرك. وقبل تعاليمَ المجمع بطريرك الاسكندريَّة فيلوثاوس برسالة انفذها الى البابا اوجانيوس الرابع فضلاً عن توقيع نائبهِ مطران هيرقلية وتوقيع دوسيتاوس نائب بطريرك اورشليم. وقبل المجمع ايضاً البطاركة الانطاكيون دوسيتاوس (وان ارتدّ بعد ذلك لاغراض) وخلفاهُ البطريرك ميخائيل الثالث مع اساقفة الكرسي الانطاكي وثيودوروس الخامس وكلهم من بطاركة القرن

الخامس عشر . وكذلك وردت من بطاركة الاقباط والارمن واليعاقبة رسائل خضوع للمجمع (١)

فكل هذه التوقيعات وغيرها كثير كتوقيع ايزيدورس الروسي رئيس اساقفة كياف وداميانوس رئيس اساقفة الفلاخ والبغدان وموسى كبير رؤساء جبل اثوس كانت في اعين العقلاء كفاتحة عصر سلام ووفاق لولا انَّ شيطان الخلاف توجس خوفاً على ملكه فسوَّل لبعض ذوي الغايات والاغراض ان يدمّروا ما بناهُ المجمع ويدكُّوا اركانهُ فصار ما صار من تضعضع امور مملكة الروم وسقوط القسطنطينيَّة في ايدي الاتراك وأصيبت بذلك الكثلكة في الشرق بجرح أليم كاد يكون القاضي عليها بين الطوائف النصرانيَّة الَّا الشعب الماروني الذي انتصر للحق وبقي ثابتاً على اعتصامه بحبل الكنيسة الرومانية فاستقى من ينابيعها المحيية ما انعشهُ وزانهُ بجلباب الفخر

١ ابتداء الرسالات الفرنسوية في حلب

بقي الشرق المسيحيّ نحو قرنين متسكعاً بظلام الخمول والجهل يئنّ تحت نير عبوديته كجريح اوجاً لا يشفق احد على آلامه حتى مرَّ به ذاك السامري المرموز به الى السيد المسيح وخلفائه الاحبار الرومانيين فرثوا لحاله وفكَّروا في علاجه . . فأخذ الباباوات ينفذون الى رؤساء الكنائس الشرقيَّة وفوداً وسفراء يسعون لديهم في اثبات العقائد الكاثوليكيَّة ويعرضون عليهم الاتحاد مع الكرسي الرسوليّ منهم رهبان ومنهم اساقفة وقصَّاد رسوليُّون كفرا غريغوار وفرا سوريانو وغيرهما من السلالة الفرنسيسيَّة والايرين يوحنَّا اليانو ودنديني اليسوعيين والسيّد ليونرد دي ابيلا اسقف صيداء شرفاً غير انَّ هذه السفارات كانت موقَّتة فلم تأت بخير ثابت . نعم انَّ الرهبان الفرنسيسيين كانوا في الشرق منذ عهد قديم الَّا انَّ همَّهم الكبير كان حفظ الاراضي المقدَّسة والدفاع عنها بما لديهم من الوسائل حتى اهراق دماءهم

على انَّ الله بعنايته الصمدانيَّة ألهم رؤساء الكنيسة بان ينفخوا في تلك الكنائس البائسة روحاً جديدة تعيدها الى رونقها المفقود منذ انفصالها عن الدوحة

(١) فليراجع كتاب « كشف المكتوم في تاريخ آخري سلاطين الروم » واعمال المجامع لمانسي ج ٣٩

البطرسية ومركز الوحدة الكاثوليكية فلم يروا وسيلة اقرب للوغ غايتهم من انشاء ارساليات ثابتة تسكن في انحاء الشرق وتمتزج امتزاج الماء بالراح مع اهله فتبشهم من بينهم

وكانت وقتئذٍ فرنسة ماشية في مقدمة الشعوب الكاثوليكية تسعى جهدها بنشر نفوذها وتجارتها ودينها في انحاء البلاد ولا سيما في الممالك العثمانية لما كان بينها وبين سلاطين آل عثمان من المعاهدات الوثيقة والمعاملات الودية. وكان ملوكها عينوا لهم سفراء في الاستانة وقناصل في الاساكل كالاسكندرية وصيدا. وفي بعض المدن الداخلية كحلب ودمشق فرأى الحبر الاعظم اوربانوس الثامن انهُ لا يستطيع ان يخدم الكنيسة الكاثوليكية في الشرق خدمة اعظم من ان يرسل الى انحاء الدولة العلية مرسلين فرنسويين. واتفق على الامر مع مجمع انتشار الايمان ومع ملك فرنسة لويس الثالث عشر ورؤساء ثلث رهبانيات عامين اي اليسوعيين والكرمليين والكبوشيين فصدرت اوامر الكرسي الرسولي المؤذنة بذلك في اوائل سنة ١٦٢٥ وكتب ملك فرنسا الى سفيره الكنت دي سيزي (de Cézy) في الاستانة في تاريخ ١٤ شباط بان يعضد المرسلين ما امكنهُ في مهمتهم لدى الكنائس الشرقية واوصاه خاصة باليسوعيين

كان اول من ندبهُ الرؤساء الى هذه الرسالة الابوان غبار مانيليه .G) (Magnilier وجان ستيلا (J. Stella) وكلاهما يسوعي من اقليم ليون انجرا من مرسيلية في ٢٢ حزيران سنة ١٦٢٥ وبلغا الاسكندرونة في ١٨ تموز ثم دخلا حلب في ٣ آب من السنة

وكانت حلب في ذاك العهد احدى امهات مدن تركيا تكاد تكون الرابعة او الخامسة من حواضرها وكان عدد سكانها يقيف على ٢٠٠,٠٠٠ يُحسب النصارى الربعَ منهم والباقون مسلمون ويهود ويزيديون وهي تُعدّ كسوق المشرق وحطّ رحال القوافل التي كانت تمرُّ فيها ذهاباً وايباً بين الشام والعراق وارمينية وما بين النهرين فعرفت الدول ما ينبغي على امتلاكها من الامال فتناوبت عليها منذ عهد البابليين الذين كانوا يسمونها حلبون ثم المصريين ودعوها خلبو ثمَّ رمَّمها سلوقوس نيكانور (٣١١–٢٨٨) فدعاها بيرية.(Bépoux و Bepón) ثمَّ صارت من بعد

الرومان الى البوزنطيين ثمّ الى العرب اشتهر بينهم بنو حمدان ثمّ بنو مرداس ثمّ السلجوقيون والأيوبيّون وتولاّها المغول ثم ممالیك مصر حتى فتحها السلطان سليم بعد واقعة عين دابق سنة ١٥١٦

ولمّا احتلّها اليسوعيّان كانت امورها عادت الى الانتظام بعد الحروب المتوالية فراجت تجارتها واقبل اليها كل طلّاب الثروة وكان تجار الاروبيين قصدوها ايضاً لترويج مرافق بلادهم واستبدالها بمحصولات الشرق الواردة الى حلب. كان سبقهم الى ذلك البنادقة ثم تبعهم الهولنديّون ثمّ الانكليز. امّا الفرنسويّون فاتوا في اثر الجميع في اواخر القرن السادس عشر. وكان لاولئك الاجانب قناصل مفوّضون من قبل دولهم لتدبير امور الرعايا وللمفاوضات الرسميّة مع عمّال الحكومة العثمانيّة وكان الكاثوليك من اولئك الفرنج قد استقدموا بعض المرسلين الفرنسيسكان نحو سنة ١٥٦٠ فقلّدوهم تدبير امورهم الروحيّة

امّا النصارى الشرقيون فكان معظمهم عدداً الروم يبلغون عشرة آلاف ثمّ الارمن الغريغوريون نحو ٩٠٠٠ ثمّ السريان اليعاقبة ٦٠٠٠ واقلّ منهم الموارنة ثمّ الكلدان. وكان للروم والارمن والسريان اساقفة يُعنون بامورهم. امّا الموارنة فاوّل اساقفتهم في حلب تعيّن بعد ذلك باثنتي عشرة سنة. واما الكلدان فكانوا من قبعة نسطور. ولم يكن بين نصارى حلب من الكاثوليك سوى بضع مئات من الموارنة كان يُعنى بامورهم كهنة قليلون ولهم كنيسة صغيرة في الجديدة على اسم النبيّ الياس. وكانت بقيّة الطوائف منفصلة الّا افراد منهم اخذوا يقتربون من الكنيسة الرومانيّة بمساعي الرهبان الفرنسيسيين اخصّهم مطران الروم ملاتيوس كيمه الحموي فهذا سُقف على حلب نحو السنة ١٦١٠ وكان رجلا عالماً تقيّاً محبّاً للالفة والاتحاد مع الكرسي الرسولي وفي سنة ١٦٢٤ طلب بوساطة المرسلين ان يُطبع في رومية الكتاب المقدّس فلبّى المجمع المقدّس الى طلبته وبُوشر بالامر الذي لم يتمّ الّا بعد ٥٠ سنة بمساعي تلامذة رومية الموارنة

فلما وصل اليسوعيّان الى حلب وعرف ذوو الغايات نيّتهما بان يستوطنا المدينة ليخدما النصارى فيها اجتمعوا وتآمروا عليهما فسُدّت في وجههما كلّ الابواب حتى لم يجدا مذبحاً يقدمان عليه الذبيحة الطاهرة الّا عند الموارنة وكان من جملة الذين

عارضوهما قنصلا البندقية والانكليز وبعض تجار الفرنج واعيان الروم فسعوا بهما لدى حاكم المدينة قره قاش محمد باشا (١٦١٧—١٦٣٠) وخدعوه بقولهم انّ اليسوعيّين قدما الى الشهباء كجواسيس اسبانية ليبوحا الى الاسبانيين باسرار الدولة. فتنمّر الحاكم غيظاً على المرسلين واوقفهما ثمّ تهدّدهما بالقتل ان لم يخرجا من حلب في ظرف ثلثة ايام. وكان من واجبات القنصل الفرنسوي في حلب وسمهُ وقتئذٍ دوليفيه (Pierre d'Olivier) ان يدافع عن المرسلين الفرنسويين فكأنّهُ خاف معاداة رصيفَيه البندقيّ والانكليزي وخشي بغض اعداء اليسوعيين فاهملهما وشأنهما كما ورد في رسالة لاحد تجار الفرنسويين يدعى فيليب كون (Philippe Caune) نشرها حضرة الاب رباط في كتابهِ الآثار الخطيّة لتاريخ الشرق المسيحيّ (١). فاضطرّ المرسلان الى الخروج من حلب وعادا الى الاسكندرونة مخفورين وبقيا هناك محبوسَين مكبّلين بالحديد الى ان اقلع مركب انكليزي الى اوربّة فأُنزلا فيهِ قهرًا وركبا البحر الى فرنسة. غير انّهُ حدث نوء شديد لم يستطع النوتيّون النجاة منهُ الّا بان عدلوا في سيرهم الى مالطة وكان الاب مانيليه في اثناء ذلك بُلي بمرض عضال. فرقّ لحالهِ رئيس المركب وانزلهُ مع رفيقهِ في الجزيرة وواصل سيرهُ بعد ايّام الى فرنسة دونهما

فكان ذلك بعناية خاصّة من الله لخير بلاد الشرق فانّ الاب مانيليه شفي بعد زمن قليل واذ وجد مركباً آخر متوجّهاً الى الاستانة ابحر الى دار السلطنة مع الاب ستيلّا ليواجها هناك السفير الفرنسوي الكنت دي سيزي ويسالا بواسطتهِ رقيماً شاهانيًا مرخّصاً لهما بالسكنى في الشهباء. وكان وصولهما الى الاستانة في اواخر السنة ١٦٢٥

فرحّب بهما السفير وسعى طاقة جهدهِ في ازالة العقبات التي تحول دون رغبتهما ثم طلب من الوزير كرجي محمد باشا بان ينال من الباب العالي فرماناً للمرسلين. لكنّ الوزير ابى الامر قطعيًا وبقي اليسوعيّان كذلك الى اواسط تموز حيث شغب العسكر

(١) هذا اسم كتابهِ (Rabbath: *Documents inédits pour servir à l'Histoire du Christianisme en Orient*, I, p. 375-379) قد ظهر منهُ المجلد الاوّل وجزءان من المجلد الثاني. وعنهُ اخذنا عدّة معلومات في هذه المقالة

على الوزير وطلب الينكشريَّة من السلطان مُراد الرابع رأس كوجي باشا فلم ير السلطان بدًّا من اجابة طلبتهم فقطع رأس الوزير وقلَّد الوزارة بدلًا منهُ صهرهُ رجب باشا. فهذا كان لين الجانب محبًّا للسفير الفرنسوي فمنحهُ طلبهُ وسلمهُ فرمانًا تاريخهُ ١٨ تشرين الاوَّل سنة ١٦٢٦ مضمونهُ الرخصة لليسوعيِّين بان يستوطنا حلب لخدمة الطوائف النصرانيَّة. فلمَّا بلغ الخبر مسامع الاب الاقدس سرَّ لهذا النبأ ايَّ سرور وارسل يشكر السفير الفرنسوي في الاستانة على همتهِ

امَّا اليسوعيَّان فتأهبا من وقتهما للرجوع الى حلب وكتب في اثناء ذلك الملك لويس الثالث عشر الى قنصلهِ فيها ليبذل وسعهُ في مساعدة المرسلين في كل حاجاتهما. فتمَّ رجوعهما في اوائل سنة ١٦٢٧

وكان حدث في مدَّة سفر اليسوعيين بعض التغيير في احوال المرسلين الفرنسويين فانَّ الخبر الاعظم اجابةً الى التماس ملك فرنسة كان منح للكبوشيين الفرنسويين وللكرمليين الفرنسويين ان يفتتحوا لهم رسالات في انحاء الشام. ففكروا ان يذهبوا الى حلب كما فعل اليسوعيون مؤملين فيها خيرًا لكثرة اهلها النصارى فضلًا عن الفرنج المتاجرين هناك

وسبق الكبوشيون الذين ارسلهم رئيسهم الشهير في فرنسة الاب جوزف الباريسي (Joseph de Paris) احد كبار رجال عصرهِ ومرشد الملك. واوَّل من دخل حلب منهم الاب باسيفيك (Pacifique de Provins) سنة ١٦٢٦. وفي السنة التالية (١٦٢٧) اتى الكرمليون تحت قيادة الاب بروسپار (Prosper - du St. Esprit). وبهم حظي الحلبيون بثلث رهبانيَّات جديدة كان الله اختارها لحصاد زرع ربِّ البيت

على ان الكبوشيين ورهبان الكرمل لقوا كلهم عدَّة مشاكل وعوائق كادت تحول دونهم والسكنى في حلب كما جرى لليسوعيين قبلهم. وقد اخبر الاب بروسپار الكرملي (١ انَّ آباء رهبانيتهم عاكسهم الترك وبعض الفرنج في اتمام مهمَّتهم لكنهم ربحوا الاوَّلين بحسن سلوكهم وكبحوا جماح الآخرين بقوَّة رسائل الملك

١) اطلب رحلة الشرق للاب فيليب الكرملي P. Philippe de la Ste Trinité: *Voyage d'Orient*, 1648, p. 468)

لويس. وكذلك الكبوشيون فان البنادقة ارادوا ان يمنعوهم عن استيطان حلب بل طمع فيهم القنصل دوليفيه رغماً عن اوامر الملك (١ لكن ونيسهم الاب باسيفيك انتصر على كل المعاندين

اما اليسوعيّان الاب مانيليه والاب ستيلّا فاستأنف اعداؤهما عليهما الحملة اذ رأوهما عادا الى حلب. فقام ثانيةً قنصلا البنادقة والانكليز مع قنصل هولندة وهيجوا عليهما ارباب الدولة باغراء ذلك العدوّ الالد الذي كان سعى اوّلاً بطردهما. وكادوا ايضاً يفوزون بالمرام كالمرّة الاولى رغماً عن الفرمان الشاهاني الذي بايديهما لولا انهُ حضر في غضون ذلك الى حلب المشير خليل باشا سائرًا مع جيشهِ لمحاربة العجم في بغداد فهذا كان عرف اليسوعيين في الاستانة وصادق على الفرمان الممنوح لهما فلمّا علم بما يكمن لهما اعداؤهما من المكايد استحضرهم امامهُ وقال لهم جهارًا: «انكم كلكم قوم كذبة خوّنة فاني اعرف هذين الراهبين وقد رأيتهما في عاصمة الدولة بل اني وقّعت على الفرمان الذي اعطي لهما فان كان احدكم يتعرّض لهما زجَيتهُ في الحبس وكبلتهُ بالقيود». ثم التفت الى الراهبين وقال: «اما انتما فلا بأس عليكما فاني ابسط عليكما كنف حمايتي»

فخزي اعداء المرسلين خجلاً وأُصيب بعد أيام اكبرهم عداوة بداء عُضال فمات ولم يحضر احد جنازتهُ. اما المرسلان فخرجا مطمئنين واتخذا لهما مسكناً في الخان الكبير الذي كان نزل فيهِ قبلهما الكبوشيون والكوموليون

٢ اعمال المرسلين الفرنسويين من السنة ١٦٣٧ الى ١٦٥٠

ابتدأ المرسلون الفرنسويّون بفلاحة كرم الربّ بما عُهدوا عليهِ من النشاط والغيرة لكنهم في اوّل امرهم لم يمكنهم الاختلاط بالاهلين فقصروا عملهم الى ابناء جلدتهم من الفرنج بالوعظ وتوزيع الاسرار وتهذيب الاحداث واخذوا يدرسون اللغة العربيّة على بعض الاساتذة الوطنيين ليستطيعوا بمعرفتها ان يخالطوا النصارى الشرقيين فيخدمونهم في الروحيّات ويوسّعون نطاق اعمالهم الرسوليّة فبارك الله مساعيهم حتى تمكّنوا بعد زمن قليل من مباشرة خدمهم الروحيّة بلغة الوطنيين. وسنرى انهم لم

(١ اطلب الآثار الخطيّة للاب رباط (Rabbath: *Documents*, I, 368,)

يكتفوا بالتبشير والتعليم لكنهم سعوا بالكتابة ايضاً ونشر الكتب الدينيّة اما تعريباً واما تأليفاً

وقد لقي المرسلون الاوّلون في بدء رسالتهم في حلب محناً عديدة ذكروها في كتاباتهم. فمن ذلك انّ اعداءهم كانوا يمنعون عنهم الحسنات لمعاشهم ليجبروهم على مبارحة البلد. فلم ير الاب مانيليه بُدًّا من ان يرسل رفيقهُ الاب ستيلّا الى فرنسة ليأتيهما ببعض الصدقات ليسدّا بها عوزهما. فبقي هو وحدهُ في حالة يُرثى لها وكان مع ذلك لا يكفّ عن خدمة النفوس وتهذيب الناشئة. غير انّ قواه كانت تخور يوماً بعد يوم فبلغ خبرهُ مسامع الاب جيروم كويرو (Jerôme Quéyrot) وهو يومئذٍ في ازمير فانتقل الى حلب سنة ١٦٢٩ وجعل يساعد الاب مانيليه في اشغاله العديدة فكان لهُ اكبر مُعين واقضل تعزية

وقد قاسى الكبوشيون مثل هذه البلايا حتى انّ رئيسهم الاب باسيفيك احتجّ على ظالميه فنجا من شرّهم وسافر بعد حين الى اصفهان حيث انشأ رسالة جديدة لرهبانه فقام عوضهُ باعمال الرسالة في حلب الاب بوناونتورا دي لود (Bonaventure-de Lude). وكذلك الاب بروسپر الكرملي خرج من حلب الى العجم لمثل هذه الغاية ثم رجع الى الشهباء بعد بضع سنوات

وبينما كان المرسلون في ضنك عيشهم ينتظرون من الله فرجاً لضيقهم اذ فشا في حلب داء الطاعون وانتشر اي انتشار حتى بلغ عدد المطعونين عدّة آلاف في أيام قليلة. فرأى المرسلون من اقدس واجباتهم ان يخدموا البائسين ويلطّفوا اوجاعهم ويمدّوهم لآخرتهم لا يكترثون لاشتدّ الاتعاب واعظم الاخطار. فكان مثلهم يعمل في قلوب الجميع حتى انطلقت الالسن دون استثناء في مديح تفانيهم واقرّ اعداؤهم بسوء معاملتهم لاهل الفضل والبرّ بل صاروا يعتبرونهم كرجال الله ويتبرّعون عليهم بمالهم للمشاريع الخيريّة. وبلغ اليسوعيين انّ رفيقهما الاب جان ستيلّا مات بذلك الطاعون عينهِ في مدينة اڤينيون وهو يخدم المطعونين فجازاه الله بموت شهداء المحبة

ولمّا سكنت العدوى وهدأ روع السكان عاد اليسوعيّان الى اعمالها الرسوليّة بغيرة اعظم من ذي قبل وكان الاب كويرو رجلاً عميم الفضل واسع الطلع كبير الهمّة فعرض نفسهُ على مطران الروم السيد ملاطيوس كرمه ليعلم ابناء طائفته اللغات

الافرنسيَّة والايطاليَّة والروميَّة فسرَّ المطران بذلك ودعا احداث طائفته الى مدرسة الاب المذكور في حي الجديدة فما لبثوا ان اجابوا الى دعوته وكثر عددهم وزاد اقبالهم على الدروس وشاع اسم الاب كويرو بين اهل حلب بل علم بامره بطريرك النار فارسل الى مطران حلب يحذره من اليسوعيين فلم يبالِ السيد كرمه لقوله فبقي الاب مداوماً على عمله بكل نشاط (١)

واذ رأى المرسلون انَّ احوالهم تحسَّنت نوعاً وانَّ الاهلين اخذوا يقصدونهم بلْ الثقة عزَّزوا رسالتهم برسلين جُدد اتوها من اوربَّة حتى بلغ سنة ١٦٣١ عدد الكبوشيين الفرنسويين ستة منهم خمسة كهنة واصبح عدد الكرمليين اربعة ثلاثة منهم كهنة. وبقي اليسوعيَّان وحدهما دون مساعد يخدمهما في امور الدير الماديَّة

وكان كل هؤلاء المرسلين يسكنون في خان الفرنج لكلّ رهبنة منهم غرفتان او ثلاث غرف وذلك خوفاً من اوباش المسلمين وعمَّال الحكومة الذين ما كانوا ليدَعوا فرصةً الَّا يسومون المرسلين خسفاً ويضربونهم ويفرضون عليهم الجمالات والضرائب ولو نقلنا هنا بالتفصيل ما يروونهُ في رسائلهم من ضروب المظالم العظيمة في حقهم وحقّ نصارى حلب لما صدَّقها القرَّاء. وكانت تلك الغرف التي يأوون اليها ضيقة لا يأتيها النور في الغالب الَّا من سقوفها فكان المرسلون يقاسون من ذلك الامرَّين. امَّا خدمهم الدينيَّة كالقدَّاس والارشادات فما كان يجوز لهم ان يقيموها الَّا في المعبد القنصلي فيجدون في ذلك ايضاً ضيقة وعسفاً

وبقي المرسلون على ذلك عدَّة سنين حتى رأى اكثرهم انَّ الحالة لا تُطاق فاستأجروا لهم بيوتاً في احياء النصارى ليس بعيداً من خان الفرنج واتخذوا لهم هياكل نقَّالة كانوا ينصبونها صباح كل يوم لاقامة الذبيحة الطاهرة ثم يوارونها في النهار وكان عمَّال الدولة اذا بلغهم عن المرسلين انهم نصبوا في تلك البيوت هيكلاً كبسوا المحلّ وغرَّموا الرهبان اموالاً طائلة حتى اضطرُّوهم الى ان يعودوا الى سكنى الخان غير مرَّة

وممَّا اخبر الاب بسون في تاريخه انَّ رؤساء اليسوعيين ارسلوا الى حلب اخاً مساعداً اسمهُ فلوري بشان (Fleury Bechesne) نحو السنة ١٦٣٣ فوكل اليه

(١) اطلب تاريخ الاب بسُّون (Besson: *Syria Sainte*, 24)

الاب مانيليه ان ينقش غرفةً صغيرة في بيت كانوا استأجروهُ وينصب فيها صورة تقويّة ليصلّوا امامها فوشى بهم احد المبغضين الى الحكومة فارسلت شرطاً اوقفوا الاب كوبرو والاخ المهندس وزجوهما في الحبس واثقلوهما بالحديد واوسعوهما ضرباً حتى أُصيب الاخ بمرض شديد وكان الاسيران يشكران الله كسل المسيح ان أُعطي لهما ان يحتملا الآلام لاجل دينهم وبقيا كذلك اياماً حتى اخرجهما تاجر افرنسيّ اسمهُ كونتور من السجن بدفع مبلغ وافر عنهما

ومن عجيب ما جرى للمرسلين بعد ذلك انّ الله اعلن براءتهم في اعين الحكومة وكان قدم الى حلب حاكم جديد وهو مرتضى نوغاي باشا كان التاجر كونتور من اصحابهِ فتبيّن فضل المرسلين وخباثة اعدائهم وكان القنصلان الانكليزي والهولندي قد تحقّقا ايضاً حسن اعمالهم فشهدا لهم عند الحاكم فامر هذا بان يُعامل المرسلون بكل اكرام وحفاوة. اما الواشي الذي كان سعى بهم فمات بعد قليل اسوأ ميتة مسموماً بفعل احد اعدائهِ ولم يتأسف عليهِ غير المرسلين الذين كانوا صفحوا لهُ عن سوء فعلهِ بهم

فكانت كل النكبات التي حلّت بالمرسلين كالريح الزعزع التي توصل في الارض جذور الشجرة فتزيدها قوّة ونموّاً. ومن ثم شرع المرسلون يتعاطون بنشاط جديد كل المشروعات الخيريّة. وكان الاب كوبرو يعظ في كنيستي الروم والموارنة بالعربيّة واليونانيّة الحديثة وفي المعبد القنصلي بالفرنسويّة والايطاليّة وكان الاب مانيليه يعود المرضى ويزور المسجونين في رفقة الاخ بيشان الذي كان يدعوهُ الحلبيون رجل الله ويطرئون فضائلهُ ويستمدُّون بركتهُ وقد خدمهم خدمة نصوحاً بكل نزاهة وتفانٍ ومات بعد ذلك في خدمة المطعونين سنة ١٦٥٢

ورجع الاب كوبرو الى تدريس الاحداث لكنّ بعض الحسّاد من الروم انكروا على مطرانهم الرخصة المعطاة للمرسل لتعليم اولادهم زاعمين بانّهُ يجعلهم فرنجاً مثلهُ. فصعب الامر على السيد الاسقف وحامى عن الاب المرسل واطنب في مديح فضائلهِ لكنّ الراهب لم يشأ ان يكون سبباً للخصام بين الراعي ورعيّتهِ فطلب من المطران ملاطيوس ان يقيلهُ من وظيفتهِ التي كان بذل نفسهُ للقيام بها

واذ حصل لهُ بذلك وقت من الفراغ اخذ بتصنيف معجم واسع جمع فيهِ

مفردات ست لغـات اي العربيّة والفرنسويّة والطليانية والروميّة القديمة والحديثة والتركية فدعاه كنز اللغات واضـاف اليه كل ما يحتاج اليهِ الاجنبيّ لمعاملاته مع الاهلين فكان اوّل كتاب أُلّفَ مرسل من هذا الصنف ولم يزل مخطوطاً

وفي تلك المدّة اطلق المرسلون العنـان الى غيرتهم لانارة الاخوة المنفصلين وردّهم الى الحظيرة البطرسيّة. ولعلّ اوّل من ارتـدّ منهم النـاطرة وكان لهم في حلب كاهن يخدمهم يدعى شمعون وقـد اخبر الاب كوارزميوس الفرنسيسي المعتمد الرسولي في كتابهِ «كشف الاراضي المقدّسة» انهُ توفي في حلب سنة ١٦٢٧ الى ردّ الكاهن المذكور الى حجر الكنيسة فقرّر صورة ايمانهِ عن نفسهِ وعن طائفتهِ (راجع المشرق ٦: ٦٥٨) ولعلّ هذا الكاهن خضع للبطريرك الكلداني ايليّا السادس (١٥٩١ — ١٦٢٧) الذي كان متحدًا مع الكرسي الرسولي (المشرق ٣: ٨٢٦) على انّ هؤلاء النـاطرة الحلبيين لم ينبذوا كلهم اضاليلهم. وقـد افاد الاب بسون (Syrie Sainte, 46) عن حالتهم وشتات كلمتهم في زمـانهِ اعني في اواسط القرن السابع عشر وما كان يبذلهُ اليسوعيون من المجهود في خدمتهم

وقد رأيت اعتبار السيد ملاطيوس كرمه الحموي للاب كريرو الذي انار كثيرين من الروم في حلب بمواعظهِ وتآليفهِ. وفي سنة ١٦٣٥ وقع اختيار اساقفة طائفتهِ عليهِ لكرسي دمشق البطريركي فدُعي اثيميوس والحّ على الاب كريرو ان يرافقهُ الى الفيحاء فرضي اليسوعي وخدم الكنيسة اليونانيّة هناك نحو ٢٠ سنة بغيرة لم تعرف السأم وفتح لاحداث الروم بدمشق مدرسة ازهرت بعد وقت قريب كمدرسة حلب واتت باثار شهيّة. وقد اخبر الاب جان امير اليسوعي في احدى رسالاتهِ (١ ان البطريرك اثيميوس الحموي مات بين يدي الاب كريرو ميتة الابرار متحدًا مع رومية الاتحاد التامّ. وجلس بعـدهُ على الكرسي الانطاكي اثيميوس الساقزلي ودعي اثيشيوس وكان كسلفـهِ محبًّا لليسوعيين الذين كان اختبر فضلهم في حلب وكانوا شفوهُ من مرض المّ بهِ

وخلف السيدَ كرمه على كرسي حلب سيمُن ملاطيوس الزعيمي ودبّر كرسي حلب من ١٦٣٦ الى ١٦٤٨ وكان ايضاً مماليًا للاتين لا يمنعهم عن ارشاد ابناء طائفتهِ

١) اطلب الاثار الحظيّة للاب ا. رباط (ج ١ ص ٤٠١ — ٤٠٢)

في المعتقدات الكاثوليكيَّة وهو الذي صار بعد ذلك بطريركاً انطاكيًّا واشتهر باسم مكاريوس وقد ذكر المشرق غير مرَّة تآليفهُ وخبر رحلتهِ الى القسطنطينيَّة وبلغارية وروسيَّة وترييفهُ للتعاليم البروتستانيَّة (المشرق ٥ : ١٠٠٩ و٧ : ٧٦٦ و١١ : ٥٤١) ونشر لهُ الاب انطون رباط في كتابهِ الآثار الخطيَّة (ج ١ : ٤٦٨) رسالتهُ الى ملك فرنسة لويس الرابع عشر . ففي مدَّة اسقفيَّتهِ في حلب نما عدد الكاثوليك من الروم بساعي الرهبان اللاتين وخصوصاً اليسوعيين . وكان خلف الابَ كويرو رجلان من اماثل الرهبان واعظمهم فضلاً وهما الاب حبيب شيزو (Aimé Chezaud) وجان اميو (Jean Amieu) فهذان اليسوعيَّان جريا على آثار الاب كويرو واشباهه بكلّ اعمالهِ الرسوليَّة فاخذ عدد المنحازين الى الوحدة الكاثوليكيَّة يزداد يوماً بعد آخر بحيث يجوز القول انَّ حلب كانت المهد الاوَّل لطائفة الروم الكاثوليك

وكذلك يحقّ للسريان ان يعتبروا الشهباء كالمركز الاوَّل لطائفتهم الكاثوليكيَّة . وكان رجوعهم في ذلك الزمان عينهِ على يد المرسلين . جاء في سجل الآباء الكبوشيين في حلب انهم اهدوا الى الايمان في حلب بطريرك اليعاقبة شمعون الاوَّل فارسل على يدهم صورة ايمانهِ في ١٢ آذار سنة ١٦٤١ الى اوربانوس الثامن (١

وكان لليعاقبة مطران في حلب اسمهُ ديونيسيوس قسطنطين كان يرعى ابناء طائفتهِ منذ السنة ١٥٩٩ فبقي في تدبيرهم خمسين سنة وتوفي سنة ١٦٤٩ بعد ان اتاح لهُ الله ان يرتدّ الى الايمان الكاثوليكي وذلك على يد مرسل يسوعي يُدعى غليوم غوده (G. Godet) الذي قضى في حلب ست سنوات ومات برائحة القداسة بعد ان قدَّم نفسهُ كضحيَّة عن اثم احد كهنة الفرنج الذي جحد ايمانهُ فصار عثرة في سبيل المؤمنين (٢ وجاء في ترجمة حياتهِ انَّ الله كان منحهُ ان لا يمرّ عليهِ اسبوع واحد دون ان يردّ للكنيسة الكاثوليكيَّة ثلاثة من الضالّين على الاقلّ

وفي هذا الوقت كان ارتداد « اخيجان بن عبد المسيح مرّي » الى الكثلكة وهو الذي عُرف بعد ذلك باسم اندراوس وكان اوَّل بطريرك كاثوليكي لطائفته .

---

١) راجع السلاسل التاريخيَّة للبكنت فيليب دي طرَّازي (ص ١٧٦) وكتاب عناية الرحمان في هداية السريان للسيد ديونيسيوس افرام قاشه (ص ٣٥)

٢) اطلب الآثار الخطيَّة (ص ٣٩٨ — ٤٠٠ و٤١٧ — ٤٢١)

امَّا رجوعهُ فكان على يد الاب جان اميو اليسوعي كما ورد ذلك في تاريخ الاب بسُّون (Besson: *Syrie Sainte*, p. 45) قال ما تعريبهُ : « ان الاب جان اميو كان مصادقاً لاحد ادباء السريان اسمهُ اخيجان وكان هذا شملساً في كنيستهِ (اليعقوبيَّة) فاهداهُ المرسل يوماً صورة من صور السيدة البتول مريم فاضحت لهُ مبدأ سعادتهِ لأنَّهُ ما كان ينظر اليها الَّا يشعر في قلبهِ نفوراً من البدعة اليعقوبيَّة وتقرُّباً الى الكنيسة الكاثوليكيَّة . فكانت هذه الافكار تشغلهُ ليلاً مع نهار فاخذ يتردَّد على الاب اميو ويعرض عليهِ مشاكلهُ حتى اكتسبهُ للكنيسة الرومانيَّة ». والظاهر من كتابات المرسلين ان الاب الكبوشي سلفستر دي سنت انيان (Sylv. de S^t. Aignan) والاب برونو دي سنت ايف (Bruno de S^t Yves) ساعدا الاب اميو في ارتداد اندراوس اخيجان ثم أُرسل الى مدرسة الموارنة في رومية حيث درس تحت نظارة الآباء اليسوعيين وبعد نهاية دروسهِ سامهُ البطريرك اسطفان الدويهي مطراناً وتولى تدبير الكنيسة السريانيَّة في حلب وتألفت منذ ذاك الحين الطائفة الكاثوليكيَّة السريانيَّة

ولحلب الفضل ايضاً في وجوع الارمن واتحادهم بالكرسي الرسولي . وتمَّ الامر فيها على يد المرسلين كبقيَّة الطوائف وقد ربح الاب حبيب شيزو شكر الارمن لغيرتهِ في خدمتهم اكثر من سواه . وممَّا ورد في تقرير للاب نيقولا پوارسون سنة ١٦٥٣ انَّ الاب شيزو كان يتفانى في خدمة الارمن واذا لم يكن للكاثوليك منهم راعٍ غيرهُ جعل يتمم لديهم كلَّ الفرائض الرعويَّة . وكان اصل هؤلاء الكاثوليك من تخشيوان في العجم واسقفهم اسمهُ اوغسطين من رهبانيَّة مار عبد الاحد فهذا علم بهمة الاب شيزو وعنايتهِ بابنائهِ الروحيين فكتب لهُ يشكره ويفوّضهُ بكل الاتمامات الخاصة بشخصهِ . امَّا المنفصلون من الارمن فكان اسقفهم مبغضاً للكاثوليك الَّا ان الاب شيزو لم يكفَّ عن ارشاد رعيَّته حتى ردَّ كثيرين منهم

وفي غضون ذلك مرَّ بحلب كبير بطاركة الارمن جاثليق اشميازين فرأى رأي العيان ثمار غيرة الاب شيزو واثنى عليهِ الثناء الطيب امام اهل طائفتهِ . فكان هذا الثناء داعياً لارمن حلب كي يقبلوا على تعاليم رسولهم فاخذوا يطلبون منهُ ان يرشدهم واولادهم في امور الدين . ثم تعين على ارمن حلب اسقف جديد كان

يتردّد للاب المذكور ويدعوهُ ليلقي على شعبهِ الوعظ ويحضر طقوس الارمن في كنيسة الاربعين شاهداً وكنيسة السيِّدة في حيّ الجديدة. فرأى الاب شيزو انَّ الله قد مهَّد لهُ السبيل لبذر الايمان الكاثوليكي في قلوب هؤلاء الارمن ولاسيما اذ بلغهُ انَّ قداسة الحبر الاعظم اوربانوس الثامن كان ارسل سنة ١٦٤٠ وفداً الى جاثليقهم فيلبُّوس اغاباد (١٦٣٣—١٦٥٥). فاخذ يدرس الارمنيَّة وأوعز اليهِ مطران حلب ان يفتتح مدرسة يعلَّم فيها بالعربيَّة العلوم الفلسفيَّة والدينيَّة والادبيَّة فاجاب الاب الى سؤالهِ وكان المطران مع كهنتهِ ووجوه رعيَّتهِ يحضرون دروسهُ ولمَّا اتقن الارمنيَّة انشأ للارمن اخويَّة كان يعظ لهم فيها بلغتهم. وبقي الاب شيزو يتفانى في خدمة الارمن حتى طلب ان يذهب الى العجم حيث عددهم اوفر فرحل الى اصفهان وفيها كانت وفاتهُ سنة ١٦٦١ وكان اتقن اللغة الفارسيَّة حتى ألَّف فيها معجماً ووضع عدَّة تآليف لايضاح المعتقدات النصرانيَّة والدفاع عن تعليمها

ولم يهمل المرسلون الموارنة بل كانوا كلّهم يتردَّدون الى كنيستهم ويعلّمون فيها الصغار ويرشدون المؤمنين وكان الاب جان اميو ممن تخصصوا بهذه الطائفة فافرغ كنانة جهده في خيرها ثمَّ انتقل الى لبنان وسواحل الشام فادَّى للموارنة ايضاً خدماً عديدة وكانت وفاتهُ في دير الاباء الكبوشيين في بيروت في ٦ تشرين الثاني سنة ١٦٥٣ ودُفن امام باب كنيسة الموارنة فيها

ومن الوسائل الفعَّالة التي توسَّل بها المرسلون في حلب لنموّ الايمان الاخويَّات التقوية. فلمَّا رسخ قدم الآباء اليسوعيين في الشهباء انشأوا منها ما امكنهم. فالاب حبيب شيزو كان قبل اخوية الارمن انشأ اخويَّةً للموارنة في كنيستهم تتقاطر اليها ابناء تلك الطائفة بكل رغبة. وانشأ الاب جلبرت ريغو (Gilbert Rigault) اخويَّة للتجار الفرنج غيرت بعد زمن قليل هيئة جالياتهم بما نفختهُ في قلوبهم من عواطف التقى والهمتهم من الاعمال الصالحة. وانشئت ايضاً اخويَّة للاحداث بمساعي الاب غوده المارّ ذكرهُ كان الصغار ينشأون فيها على كل آداب الشيبة الصالحة

فكلّ هذه الاعمال تمَّت في مدَّة ٢٥ سنة الاولى التي قضاها المرسلون في حلب. ومنها ترى انَّ الزرع كان سقط في تربة صالحة فاتى بالستين والمئة. وفي عدد آخر نتبع ان شاء الله آثار المرسلين فنروي مآثرهم في بقيَّة القرن السابع عشر (لهُ بقيَّة)